اسم الدرس : تفسير سورة الرعد (١) | الآيات [١ : ٢]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

بإذن الله تعالى نعود مرةً أخرى إلى القرآن، وأسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يجعلني وإياكم من أهل القرآن، وأن يفتح لنا فتحًا مبينًا في فهم كتابه، والعمل به، والجهاد بكتاب الله، وأن يُشرّفنا جميعًا بخدمة كتابه -سبحانه وتعالى-.

لماذا مجالس القرآن؟

وقبل أن نبدأ بالسورة التي نستفتحها اليوم بإذن الله تعالى سنجيب عن تساؤل -قد يطرحه البعض- عن سبب اختيار مجالس القرآن، فالدروس الأخرى التي تناقش مواضيعًا عابرةً، أو مشكلة نُحاول حلَّها، تكون أكثر سهولة، وفي نفس الوقت قصيرة بحيث نستفيد منها، بينما مجالس القرآن تطول،لا سيما إن كنّا بصدد سورةٍ طويلةٍ فيها عدة مجالس كسورة الأنعام والأعراف، فيكون في متابعتها نوعٌ من الصعوبة.

فلماذا إذًا الإصرار على مجالس القرآن؟!

وتكفي للإجابة على هذا السؤال أحاديث فضائل القرآن -كإجابةٍ عامة-؛ لأن الإجابة على هذا السؤال -بحدّ ذاتها- تحتاج إلى محاضرة كاملة عن أهمية كتاب الله -سبحانه وتعالى-.

وحقيقةً فإنه مع كثرة القراءات وازدحامها، قد ينسى الإنسان أهمية القرآن، وكما ذكرت قبل ذلك مرارًا فنحن نعيش حالة من التجريف للأصول، بحيث أصبح المسلم لا يعرف شيئًا عن أصوله، ولا عن تاريخه وسلفه، ولا يعرف لغته أو هُويته، فأصبح بذلك كأنه منزوع الأصل.

والإنسان عندما تنقطع علاقته بالماضي، يعيش حالة من العبث، لأنه عندما يريد أن يُقيِّم نفسه، ويُقيِّم عاداته و تقاليده، ليعرف الصواب من الخطأ، يكون بحاجةٍ إلى أن يكون عنده وحيٌ أو تقاليد يقيس

عليها، فإذا ما نُزِع من ماضيه، فإنه يعيش حالةً من العبثية والعدمية إذ ليس لديه أية معايير، والذي يفقد الماضي يفقد معه المستقبل.

ولتوضيح هذه الفكرة نضرب المثل التالي:

إذا سافر أحدٌ ما خارج البلاد، وانقطعت صلته بأهله تمامًا، بحيث لم يعد أحدٌ يسأل عنه، فإنه يصبح غريبًا يعيش لوحده –وكما يقال: كأنه قد قُطِع من شجرة–، فإذا لم يكن له دينٌ يحكمه، فإنه يكون فاقدًا لمعايير الحكم ومبادئ الصواب والخطأ، وهو في هذه الحالة سيفعل كل ما يحلو له، لأنه غريب ولا يسأل عنه أحد.

لذلك فقد كان من دين يوسُف عليه السلام –كما قال العلماء– أنّه ثبت في زمن الفتنة في قصر العزيز، حيث أنه كان شابًا، وامرأة العزيز هي من تعرّضت له وأقبلت عليه، على الرغم من أنه كان غريبًا.

ودائمًا تجد الغريب إذا سافر لأي بلد –حتى إن كان ذاهبًا للعمرة– يتخفّف من الالتزام بالتقاليد، كأن يسير حافيًا، أو يهمل الاهتمام بمظهره وملابسه، وكذلك الإنسان عندما يكون غريبًا، تراه يتخفّف من القوانين والعادات والتقاليد.

فَلَكَ أن تتخيل حاله عندما يكون منقطعًا عن الماضي، وعن سلفه، عندها يبقى الثابت الوحيد للمسلم في زمن المتغيرات هو القرآن، ومن هنا كانت فكرة درس "إعادة ضبط"،

فالقرآن يعيد تشكيل العقل والقلب، وتشكيل النفس والهُوية، وتشكيل المبادئ والعقائد، فكأنّ القرآن يُعيد خلق المسلم وتشكيله مرة أخرى!

للأسف، شاهدت قبل قليلٍ تقريرًا إخباريًا أعدّته قناة BBC عن مسلمي الصين وهو غاية في الألم، حيث تعرِض فيه كيف تعرَّض مسلمو الصين للسجن والتعذيب، ثم تم بعد ذلك التعامل مع آلافٍ مؤلفةٍ منهم بصورةٍ غريبةٍ جدًا، وعندما بدأت هيئات الحقوق تسأل عنهم، قالوا بأنه قد تم وضعهم في مدارس، وليس في سجون.

وبدؤوا بالسماح للقنوات الإخبارية بعمل استكشاف لهذه الأماكن، التي يسميها الصينيون مدارس، وفوجئوا بأنهم يعيدون تشكيل هُويتهم مرة أخرى، حيث يُعلّمونهم الرقص والفن الصيني والفن الشعبي بالقسر والقوة، ليبتعدوا بهم تمامًا عن الإسلام، ويعاد تشكيل أفكارهم مرةً أخرى، وتُلقى عليهم الأفكار، وتُعاد مرارًا وتكرارًا، ويتم إجبارهم على الغناء والرقص والاختلاط، بل و يُهدَّدوا ثم يُتركوا فترة عامين أو ثلاثة ليعيشوا في هذا المجتمع الذي تم إجبارهم على الحياة فيه، بعد أن كانوا يرفضونه سابقًا، ثم بعد ذلك يُطلَق سراحهم بعد ثلاث أو أربع سنوات، عندها لا يعود بإمكانهم أن يرجعوا مسلمين لأنه قد أُعيدَ تشكيل هويتهم.

فأنت عندما تُسلم نفسك للقرآن، تعود للإسلام مرة أخرى، وهذا هو الغرض الأساسي من مجالس القرآن: كثرة التعرُّض لآيات القرآن مع نوعٍ من المدارسة، لتُعاد صياغة أفكارك ومبادئك لفَهم الإسلام.

فالقرآن الذي أنزله الله –سبحانه وتعالى– على نبيه –صلى الله عليه وسلم– لم يُحرَّف، ولم يُبدَّل، ولم تُغيَّر فيه كلمة، وهو الذي صنع جيل الصحابة رضوان الله عليهم، وبالتالي فهو قادرٌ على أن يصنع أجيالًا متتاليةً، لذلك بيّن ربنا –سبحانه وتعالى– في ختام سورة البروج بعد تقتيل المشركين للمؤمنين، أنَّه حتى وإن قُتِّل عددٌ كبيرٌ من المؤمنين فإنَّه –سبحانه وتعالى– قد حفظ لنا القرآن من التغيير والتبديل ، فقال جلَّ وعلا في ختام السورة: {بلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِّيدٌ۝ في لوحٍ مَّحْفُوظٍ } [البروج: ٢١،٢٢]

اختيار السورة

نأتي الآن إلى النقطة الثانية، وهي: اختيار السورة،

حيث كنت مترددًا في اختيار هذه السورة، ربما لأنَّ ضعف الإنسان في التعامل مع التفسير، وقلة الارتباط بالقرآن –مع الأسف– تجعله يختار من سور محدودة –فلا أقول مثلًا سأشرح سورة البقرة، أو

النساء، أو المائدة-، فأنت تختار ما تستطيعه -على حسب فهمك-، وما يمكنك أن تقرأ فيه في كتب التفسير.

أو ربما يكون ذلك راجعًا إلى ارتباط الإنسان ببعض السور، فهو يحب سورًا محددة، أو فُتحَ له في هذه السور، لذلك فهو يريد أن يشرحها.

وسورة الرعد من السور التي أحبها كثيرًا، لكنني في الوقت نفسه أتهيّب من شرحها، وكنتُ أنوي شرحها بعد سورة يوسُف -إلا أننا انتقلنا إلى سورة العنكبوت- لا سيما في التسلسل، بعدما تكلمنا عن سورة هود في "إعادة ضبط٢" في سلسلة الإشكاليات في مجمل سورة هود والخواتيم، ثم تكلمنا بالتفصيل عن سورة يوسُف، لكنَّها من السور التي يتهيّب الإنسان أن يتحدث فيها، ويشعر بمهابة تجاهها، فهو يشعر أنَّ فيها أسرارًا ما، أو ربما نتيجة عيِّ اللسان وعجمته فإنه لا يستطيع أن يُعبّر عمّا في صدره تجاه هذه الآيات، فكأني قد فضَّلتُ أن تبقى هذه الآيات كما هي، أقرؤها على النَّاس بلا تدخلٍ مني بتفسيرها، وسبحان الله كنتُ مترددًا في اختيار سورة الرعد وأنا أقرأ في التفاسير قبل اتخاذ القرار، ففوجئتُ بمقدمة "الظلال" لهذه السورة، فكأنَّه -سيد قطب- قد عبّر تمامًا عمّا أجدهُ في صدري، حيث قال: "كثيرًا ما أقف أمام النصوص القرآنية وقفة المتهيب أن أمسّها بأسلوبي البشري القاصر المتحرّج أن أشوبها بتعبيري البشري الفاني!

وهذه السورة كلها - شأنها شأن سورة الأنعام من قبلها- من بين هذه النصوص التي لا أكاد أجرؤ على مسّها بتفسيرٍ أو إيضاح".

فالسور التي تتحدث عن الله وتعرّف به، تجعل الإنسان يتهيب من الكلام فيها، مثل سورة الرعد، وسورة لقمان، وسورة فاطر، وسورة الأنعام، بل إنّ هذه السور الثلاث تحديدًا الرعد و لقمان و فاطر هي التي اختارها محمد قطب في كتاب "دراسات قرآنية"، لأنَّه يَكثُر فيها الكلام عن الله -سبحانه وتعالى-.

ونكمل ما جاء في هذه المقدمة، حيث يقول:"ولكن ماذا أصنع ونحن في جيل لا بد أن يُقدَّم له القرآن مع الكثير من الإيضاح، لطبيعته ولمنهجه ولموضوعه كذلك، بعد ما ابتعد الناس عن الجو الذي تنزّل فيه القرآن، وعن الاهتمامات والأهداف التي تنزّل لها، وبعد ما انماعت وذَبُلَت في حسّهم وتصورهم مدلولاته وأبعادها الحقيقية، وبعدما انحرفت في حسّهم مصطلحاته عن معانيها"

فهو يتحدث عن أنَّ المسلمين حالياً لا يجهلون معنى كلمةٍ معينة، أو ما قاله السلف في هذه الكلمة فحسب، بل إنهم فقدوا الجو العام الذي نزل فيه القرآن، وأصبحوا غرباء عنه، أو أنّ هذا الجو ليس من أهدافهم واهتماماتهم.

وعادةً ما أضرب هذا المثل لتبسيط الفكرة: إذا وجدتَ كتابًا بعنوان: "كيف تصبح مليونيرًا؟ "، وكنت غير مهتمٍّ بأن تكون غنيًا أو مليونيرًا، أو أنك لستَ في حاجةٍ إلى المال، أو لا تُصدّق هذا الكلام، فأنت ستقرؤه قراءةَ المتصفح المستغني، أو قراءة غير المبالي أو المكترث، ، ولن تتعامل معه بصدقٍ إلا إذا كنت تتمنى أن تكون مليونيرًا، ورأيت بالفعل أنّ مَن قرأ هذا الكتاب وطبّقه قد أصبح مليونيرًا ، هنا فقط ستتعامل معه بيقين، وتهتم بكل كلمة فيه، وتعتني به عنايةً خاصةً، بل وتتهِّمَ نفسك إن حاولت تطبيق ما فيه وفشلت، ستتعامل تعاملًا مختلفًا.

فعندما تصبح أهدافك هي نفس أهداف من نزل عليهم القرآن، أن تريد أن تحقق العبودية، عندها ستهتمّ بالقرآن، فإذا ما سمع مثلًا:

{ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ } [آل عمران : ٣١] الذي يحب الله عند أول سماعه لهذه الآية يتلهف لمعرفة المطلوب منه، فهو يحب الله لكنه لا يعرف ماذا يعمل { فَاتَّبِعُونِي }[آل عمران : ٣١]، فسيحمد الله أنّ هناك سبيلًا قد رُسمَ له.

القرآن نزل ليعاش به ويتحرك به

وهُنا يقول سيد قطب في "ظلال القرآن" أنَّه يشعر أنَّ الجيل قد أصبح غريبًا عن معاني القرآن، وأنا أختلِف معه في مسألة استعمال مصطلح "الجاهلية"، لأنّه كان مصطلحًا مُوهِمًا، وقد عُوتِبَ كثيرًا فيما

يعنيه بهذا المصطلح، ففي الصفحة الأولى من مقدمة سورة الرعد، جاءت كلمة "الجاهلية" ست أو سبع مراتٍ –من كثرة ما رأى من المشاكل حوله، و بعد الناس ممن حوله عن الدين–، حيث يقول:

"وهم يعيشون في جاهلية كالتي نزل القرآن ليواجهها، بينما هم لا يتحركون بهذا القرآن في مواجهة الجاهلية كما كان الذين تنزل عليهم القرآن أول مرة يتحركون"

وهنا يقصد توضيح فكرةٍ جميلة، وهي: **أنَّ القرآن لم ينزل ليُقرأ فحسب، وإنما نزل ليُعاشَ به ويُتحرَّك به**، وتوجد مقالةٌ بعنوان: "ديناميكية القرآن الكريم" على موقع مركز تفسير؛ تشرح قول الله –سبحانه وتعالى–: {أَوَمَن كَانَ مَيتاً فَأَحيَينَٰهُ وَجَعَلنَا لَهُۥ نُوراً يَمشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ} [الأنعام : ١٢٢] وكان التركيز على كلمة {يَمشِى}، حيث ذكر الكاتب أنَّ النور غيرُ مستقرٍ، بل يُتحرَّكُ به بين الناس.

فلا بدّ أن تتحرك بالقرآن بين الناس، فلن يظهر أثر القرآن ولا معانيه ولا كثير من القضايا التي يحلّها القرآن، إلا عندما تتحرك به، فتواجهك المشكلات فتفهم فتقوم بحلّها.

قد لا يعرف الكثير من الناس كيف يستفيد من الآيات، ولكن عندما يشتغل بالدعوة، و يطلب العلم، وينشر الدين، وتقابله المشكلات، ويعود لقراءة القرآن، يُفاجأ أنَّ القرآن يحلّ هذه المشكلات.

فهو نفس الطريق الذي سار فيه الأنبياء، والصحابة، والصالحون، والتابعون، ووجدوا فيه حلًّا لمشاكلهم، وكذلك أنت إذا ما سرت على طريقهم فستقابلك المشاكل نفسها وستجد نفس الحلول، والقرآن لا يخلق على كثرة الرد.

ومن الضروري في كل فترة زمنية –ثلاثين أوخمسين أو ستين سنة– أن يخرج مَن يتكلم في القرآن بما يناسب لغة ذلك الجيل ومشاكله، فلو أخذنا مثلًا قضية بارزة مثل قضية الإلحاد، منذ عشرين سنة لم تكن بارزة، فمن المهم في تناول القرآن حاليًا أن نُركّز على هذه القضية.

وفي فترةٍ من الفترات كانت القضية الأبرز هي الاشتراكية أو الشيوعية، فكان ضروريًا في تناول القرآن أن نضرب هذه الأفكار ونهدمها ، أما الآن فلدينا الرأسمالية مثلًا، وغير ذلك من المصطلحات كالحداثة أو العلمانية.

إذًا فالمهم هو تناول القرآن بما يناسب المشاكل التي يعيشها أبناء هذا الجيل.

أنت من عليه أن يكابد ليصل إلى علاقة مع القرآن

وبعد أن تحدثت المقالة عن أنك لن تدرك آثار القرآن إلا بعد أن تتحرك في الواقع، نعود إلى كلام سيد قطب:

"ومع هذا كله يصيبني رهبة ورعشة كلما تصديتُ للترجمة عن هذا القرآن! -يقصد التفسير- إنَّ إيقاع هذا القرآن المباشر في حسي -يقصد علاقتة المباشرة مع القرآن- مُحالٌ أن أترجمه في ألفاظي وتعبيراتي".

أي أنَّه عندما يعيش مع السورة يشعر بمعانٍ غير طبيعية في صدره، ويأتي لنقلها، والحديث عنها، فلا يستطيع، وهذا المعنى قد عبّرتُ عنه في منشورٍ نشرته سابقًا -وهو قريبٌ من كلام الرافعي-: أنَّ هناك دائمًا فجوةً بين المعاني التي تعيشها، وعندما تريد أن تنقلها لا تتمكّن من ذلك، فأنت تحتاج أن تُؤتَى فصاحةً وبيانًا، وأن تمتلك أدواتٍ كثيرةً، لتتمكّن من مقاربة المعنى الذي تجده بداخلك.

يقول صاحب الظلال: "ومن ثمَّ أحس دائمًا بالفجوة الهائلة بين ما أستشعره منه -من القرآن- وما أترجمه للناس في هذه الظلال".

وهذا دائمًا ما أستشعره بعد كل درس قرآن، تشعر أنَّك لم تقُلْ ربّما ربعَ ما كنت تودُّ قولَه، والحل الأوحد -الذي أراه- هو أن يكون دورُ مَن يشرح مجرد ربط الناس بالنص، لا بشخص.

وقد عبّر عن هذا المعنى تعبيرًا جيدًا، فقال: "وإنني لأهيب بقُرّاء هذه الظلال، ألَّا تكون هي هدفهم من الكتاب؛ إنما يقرؤونها -أي الظلال- ليدنوا من القرآن ذاته. ثم ليتناولوه عند ذلك في حقيقته، ويطرحوا عنهم هذه الظلال".

فدوره إذًا هو كسر الحواجز بين الناس وبين القرآن، وأنت من يجب عليه أن يتذوّق، أو يكابد.

لابدّ لك مِن أن تتعب، وتُعاني بنفسك لتصل إلى علاقة مباشرة مع القرآن، أنت من عليه أن يجاهد، ويقرأ، ويكرر الآيات، ويدندن بها، ويصلي بها، ويسمعها بعيدًا عن الناس، وكما يقول الدكتور فريد الانصاري :"يكابد حتى يشتعل الفتيل"، ساعتها ستنير الجمرة، وعندما تنير فلن تتركها أبداً.

مقدمة سورة الرعد

كانت هذه هي المقدمة، والآن نبدأ بسورة الرعد:

هذه السورة العظيمة، اسمها مخيف، يقذف في قلبك الخوف والطمع.

لذلك تجد بعض من كتب في التفسير الموضوعي أو موضوع السورة، يلتقط هذا المعنى بتعبير الدكتور فاضل السامرائي وغيره –إن صح هذا التعبير–.

فإذا ما نظرنا إلى المتناقضات الموجودة في السورة، نجد أنّ الأعلى تحققًا فيها كان هو الرعد، الذي يبعث على الخوف والطمع في آنٍ واحد، فالرعد يكون آيةً يُستضاء بها ويعرف بها المؤمنون ربهم، وفي الوقت نفسه آيةً يكفر بها الناس، كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم– عن الله تعالى في الحديث القدسي: (أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافر) [١]

فالآية نفسها تجعل إنسانًا يؤمن، وآخر يكفر!

لذلك قال الإمام البقاعي عندما كان يتحدث عن سورة الرعد: "اسم سورة الرعد هذا إشارة إلى القرآن، كما أن القرآن يهتدي به أناس ويضل به آناس، فكذلك الرعد يقذف الخوف في قلوب أُناس ويقذف الطمع في قلوب أناس آخرين"

فالآية الواحدة لها أكثر من دلالة، والاسم وحده يُحدِث مشاعرَ متنوعةً في قلبك، هذا بالنسبة للاسم، ونحن عادةً ما نتحدث في مقدمة السور عن أمرين اثنين: موضعها في القرآن، وزمن نزولها.

١[عن زيد بن خالد الجهني:] صَلّى لَنا رَسولُ اللهِ ﷺ صَلاةَ الصُّبْحِ بالحُدَيْبِيَةِ على إثْرِ سَماءٍ كانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمّا انْصَرَفَ أقْبَلَ على النّاسِ، فَقالَ: هلْ تَدْرُونَ ماذا قالَ رَبُّكُمْ؟ قالوا: اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، قالَ: أصْبَحَ مِن عِبادِي مُؤْمِنٌ بي وكافِرٌ، فأمّا مَن قالَ: مُطِرْنا بفَضْلِ اللَّهِ ورَحْمَتِهِ، فَذلكَ مُؤْمِنٌ بي وكافِرٌ بالكَوْكَبِ، وأمّا مَن قالَ: بنَوْءِ كَذا وكَذا، فَذلكَ كافِرٌ بي ومُؤْمِنٌ بالكَوْكَبِ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٨٤٦ • [صحيح]

زمن نزول سورة الرعد

وبالنسبة لزمن نزول سورة الرعد، فإنّ هناك خلافًا كبيرًا بين أهل العلم في ذلك –وهذا شيءٌ غريب في الحقيقة–، ولولا الآثار الواردة عن بعض السلف، وبعض أسباب النزول التي قيلت في بعض الآيات – كما سيقابلنا إن شاء الله– لجزمت بأنها مكية، لكن العجيب وجود قولٌ قوي بكونها مدنية عند مَن يأخذ بترتيب جابر بن زيد ممن يكتبون في التفسير كالشيخ حبنكة الميداني الذي كتب تفسيرًا للقرآن بترتيب النزول –وإن كان في هذا خلاف–، وعلى ما أعتقد أن الأزهر قد أصدر بيانًا بأنَّ هذا خطأ، وأنَّ الأولى أن يُفسّره بترتيب المصحف، خاصةً إذا أراد أن يعمل مصحفًا بترتيب النزول، وقال بتحريم ذلك.

وهناك أيضًا آخرون عملوا على تفسير القرآن بأسباب النزول لأنَّه ليس قطعيًا، والشاهد في تفسير الشيخ حبنكة: أنَّه اعتمد –على ما أظن– على ترتيب جابر بن زيد، لذلك بدأ بالقرآن المكي، ثم انتقل إلى المدني، فبدأ –المدني– بسورة البقرة، ثم توفاه الله تعالى.

ففسر بذلك القرآن المكي كاملًا، وبدايات سورة البقرة من القرآن المدني في خمسة عشر مجلدًا، ولم يضع سورة الرعد في القرآن المكي، فسورة الرعد المطبوعة ليست من ضمن تفسيره، ولكن قُدِّر له أن يُنتَدب لشرح سورة في إحدى الجامعات السعودية –وهو شامي الأصل– فاختار سورة الفرقان مرة، وسورة الرعد مرة أخرى، فطُبعت بمفردها، فهو يرى أنها مدنية، وكثيرٌ غيره يرى ذلك.

في حين يرى آخرون أنها مكية، والذي يلاحظ ويراقب طريقة عرض العقيدة في هذه السورة، يجد أنَّ هناك عدة ملامح تقول بأنها مكية منها:

- أولًا: وضعها ضمن الشوط المكي الطويل الذي يبتدئ بـ {الٓرۚ} من سورة يونس إلى النحل، وقد يفهم من وضعها ضمن هذا السياق بأنها مكية، نسبة إلى ترتيب المصحف.
- ثانيًا: داخل السورة توجد دلالات كثيرة، أن دائمًا من كانوا يطلبون دلالات حسية هم مشركي قريش هم مَن كانوا يطلبون الآيات الحسية، وليس أهل الكتاب، لأن أهل الكتاب قد نزل عليهم كتابٌ من السماء، فهم إنما كانوا ينكرون كون القرآن من عند الله، فكانت شبهاتهم تختلف عن شبهات المشركين من قريش.
- ثالثًا: تكرار جملة {وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا}.

وقد قال ابن عاشور: "خمس شبهات في السورة كانت أقرب لدلالة أنها مكية"، فالكلمات والشبهات التي قيلت في السورة هي شبهات المشركين.

بينما قال البعض بأنه لا مانع من أن تأتي سورة مدنية تعيد طرح العقيدة التي ذكرت في مكة، ليتذكر الناس، كما حدث من خلاف في سورة التغابن، فسورة التغابن جاءت وسط الشوط المدني من السور في الجزء الثامن والعشرين، مما جعل بعضهم يشك في أنها مكية، حيث قال البعض بأنها مدنية وجاءت حتى لا ينسى المجتمع المدني طريقة طرح العقيدة في مكة.

إذًا فهناك خلاف كبير في زمن نزولها، ولستُ بصدد الترجيح -ولست أهلًا لذلك-، لكنني أميل إلى الاعتقاد بأنها مكية، دون أن أقطع بذلك، والخلاف سائغٌ، والأمر فيه سعة.

وبالنسبة لمن قال بأنها مكية من خلال سياقها، فإنه يرى أنها نزلت في أواخر العهد المكي، أي أشبه بسياق سورة يونس وهود ويوسف، وذلك عندما حدث ضغط شديد على المسلمين، وكلما كان الضغط يزداد على المسلمين ويشتد العذاب عليهم، كانت تكثر الشبهات، لأن وقع الشبهات لا يعتمد على قوة الشبهة فحسب، وإنما على الواقع الذي تُلقى فيه الشبهة، فعندما يكون الواقع فيه استضعاف، وهزيمةٌ نفسية، وتكون فيه الطائفة المهزومة مقلدةً للطائفة المنتصرة، هنا يسهل انتشار الشبهة، لعدم وجود مناعة في مثل ذلك الواقع، وتتعمد الطائفة المنتصرة إلى زيادة الشبهات.

وبالنظر في هذه السورة نجد زيادة مطالبة الكفار بآية -وقد تكرر ذلك مرتين-، وإنكار الرسالة، وإنكار الوحي أكثر من مرة، وطريقة معالجة السورة لهذه الإشكالية تدل على أنها أقرب إلى الواقع المكي، لا سيما المتأخر منه.

وإذا ما نظرنا إلى ترتيب سورة الرعد في المصحف، فإننا نجدها تقع بعد ثلاث سور سُمِّيت بأسماء الأنبياء (يونُس، هود، يوسُف)عليهم السلام، ثم جاءت بعدها سورة إبراهيم، والحجر.

وأودّ أن أذكر بعض الملاحظات -وإن كنت لا أملك تفسيرًا لها، لعلَّ الله -سبحانه وتعالى- يفتح بها على من يتدبرها، لا سيما أنَّ السور التي تُستفتَح بالأحرف المقطعة، يكون فيها أسرار، خاصةً عندما تأتي الأحرف المقطعة مختلفة قليلًا، مثلًا: {الٓمٓ} جاءت في القرآن المدني كسورتي البقرة وآل عمران، وأيضًا في القرآن المكي كسور العنكبوت والروم ولقمان والسجدة -وقد تكلمنا عن هذا سابقًا-،لكن

هناك {المص} في سورة الأعراف –وهي غريبة–، حيث أنه يوجد {الٓمٓ} وحدها، و{ص} وحدها، وهنا {المص} فجاءت الصاد زيادة على {الٓمٓ}.

أيضًا في سورة الرعد {الٓمٓرٰۚ} جاءت فيها الميم زيادة على {الٓرٰۚ}، وتوسّطت سياق {الٓرٰۚ} الذي بدأ بسورة يُونُس وانتهى بسورة الحِجر، وعندما تأتي زيادة الحروف وسط سياقٍ بنفس الحروف المقطعة، فلا بدّ أن تكون لها دلالة، كما في سورة الشورى، حيث جاءت زيادة {عٓسٓقٓ} بعد {حٰمٓ} في منتصف السور المفتتحة بـ {حٰمٓ}؛ بعد غافر وفُصلت، وقبل الزُخرف والدخان والجاثية والأحقاف، فلا بدّ أن يكون لهذا دلالة، ومن يريد أن يتوسّع في هذا المعنى، أُحيله على بداية سورة الأعراف –وقد فصّلت فيها في الكلام عن الأحرف المقطعة تفصيلًا كاملًا–.

وبالعودة إلى سورة الرعد، فإنه لا بدّ أن يكون فيها معنى زائدًا على المعاني التي تضمنتها سور{الٓرٰۚ}، وسوف أستعرض سريعًا المعاني التي تضمنتها كل من: سورة يونُس وهود ويوسُف.

- في سورة يونُس نحن في حالة استضعاف، حيث لا يوجد حتى مكان لتُقيم فيه الصلاة فجاءت الآية:

{وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً} [يونس : ٨٧] بعد هذه الآية:

{فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ} [يونس : ٨٣]

فلم يؤمن مع موسى عليه السلام إلا القليل من الشباب الخائفين، وقد قال البعض أن الضمير في: {وَمَلَئِهِمْ} عائدٌ على آبائهم من بني إسرائيل، فآباؤهم أيضًا كانوا يَمنعونهم من الإيمان، وليس فرعون وحده.

لذلك قال لهم الله تعالى: {وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}، ثم استبشروا {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}،

وفي ظل واقع الاستضعاف الرهيب هذا، يقول الله تعالى:{وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ} [يونس : ١٠٩]، دون أن نعرف ما الذي سيحدث بعد ذلك.

- ثم تأتي سورة هود، وفيها أيضًا واقع استضعاف –وقد شرحته سابقًا بالتفصيل في سورة هود–، وجاء فيها أيضًا {وَاصْبِرْ}، وانتظر الأمر، وقد تكررت كلمة الأمر كثيرًا في هذه السورة:

{حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا}[هود: ٤٠]، وفي نهاية السورة: {وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ}[هود:١٢٣].

وأنت في سورة هود تبذل وتنتظر النتيجة، وأنت مُستضعَفٌ، تُعذَّب، وتُضرَب، تحاول أن تجد ملجأً أو ناصرًا فلا تجد، تحاول أن تنشر الإسلام فلا تجد من يقبل، وقد أُغلقت كل الطرق في وجهك، ماذا تفعل ؟اصبر.

وقد جاء في خواتيم سورة هود أنَّ الذي يصبر في هذا الوضع هم: {أُولُوا بَقِيَّةٍ}[هود:١١٦] – وقد شرحنا معنى هذه الكلمة بالتفصيل في سورة هود–، وهم القلة القليلة الذين يبقون بعد أن يسقط كثير من الناس.

وأنا أريد منك أن تعيش في جو السيرة، فهو أشبه بواقعنا، حيث المسلمون مستضعفون، وعندما تتساءل عن الحلّ وكيفيته، يأتيك الجواب: اصبر وانتظر {فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلمُنتَظِرِينَ}[يونس:٢٠][يونس:١٠٢]

ويكون جوابك: سأنتظر، وسأصبر، وسأكون إن شاء الله من "أولي بقيّة"، ولن أتخلى حتى عن بعض الوحي {فَلَعَلَّكَ تَارِكُ بَعضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيكَ}[هود:١٢].

فالكفار في سورة يونس طلبوا من النبي –صلى الله عليه وسلم– تغيير كل شيء: {ٱئتِ بِقُرءَانٍ غَيرِ هَٰذَآ أَو بَدِّلهُ} [يونس : ١٥]

بينما في سورة هود طلبوا منه ترك بعض من الوحي {فَلَعَلَّكَ تَارِكُ بَعضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيكَ}.

ثم تأتي بعد ذلك **سورة يوسُف لتضرب لك نموذجًا في كيفية حل المشاكل المعقدة بصورة بسيطة؛ برؤيا تُبين لك لطف الله –سبحانه وتعالى–** حتى لا تفقد الأمل، فسورة يوسُف ترطيب لقلب المؤمن، فقد تُحَلُّ مشاكلٌ معقدة جدًا برؤيا يراها ملك ظالم!

فبعد الضغط في سورة يونُس وهود، تخرج من سورة يوسُف وقد أصبح لديك أملٌ بأنَّ الأوضاع يمكن لها أن تتغير.

وهذا الإله الذي هو لطيفٌ لما يشاء، له جنود السماوات والأرض، ومن جنوده الرعد، وقد أنزل بصفاته وقدرته وعلمه وحيًا يجب عليك أن تتمسك به.

هذا الإله الذي أمرك بالصبر في سورة يونُس وهود، وبيَّن لك مدى لطفه في سورة يوسُف، قد بيَّن لك مدى قدرته وعلمه في سورة الرعد، ووضّح لك أنَّ هذا الصراع الذي تتذوق ألمه هو من سُنة الله في خلقه، كما بيّن لك أنَّ الباطل مهما علا فهو زبدٌ، يذهب جُفاءً {وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ}[الرعد:١٧]

كل هذه المعاني تجدها في سورة الرعد، فتخرج منها بقوة، فهي تجعلك كأنَّك أنت الرعد.

وسنرى كيف أنَّ بدايتها أيضًا فيها قوة، فالطرح القرآني فيها مختلفٌ تمامًا، وسأسجل بإذن الله محاضرة تتحدث عن اختلاف الخطاب القرآني عن أي خطاب بشري في تقرير العقائد، فهو منفرد تمامًا في تقرير العقائد في القلب.

موضوع سورة الرعد

وبالنسبة لموضوع السورة –وعادةً لا أحب التعجل فيه–، فإنني أُفضل أن يعيش الإنسان السورة، آيةً آية، ويصلّي بها وبعد أن يصل إلى المستوى الرابع مع السورة، من معايشتها، والصلاة بها، وقراءة تفسيرها، وسماعها كثيرًا والدندنة بها؛ هُنا يستطيع البدء في معرفة موضوع السورة.

وقد اهتم المتأخرون بالتفسير الموضوعي بشكل أكبر من المتقدمين، فتجد أنهم في موقع حصاد التدبر – جزى الله القائمين عليه خيرًا– قد جمعوا آراء كلِّ مَن تحدث في موضوع السور –سواء كان كاتبًا معاصرًا أم متقدمًا–.

- والموقع له اختيارات كثيرة، **ويرى القائمون على الموقع أنَّ موضوع سورة الرعد هو: الاستجابة لله.**
- وهناك مؤلف معاصر –ولكنه توفي– اسمه **طهماز**، وهو يرى أن موضوعها: **الأسباب والمُسببات.**
- وفي **المختصر في التفسير**: **بيان حقيقة القوة الإلهية.**
- وفي **التفسير المباشر** يرى أنَّها: **سورة عقدية.**

- وهناك أخت تهتم بباب التفسير الموضوعي، اسمها **جميلة خليف**، ترى أنَّها: **تطمين لقوة الله**.
- **وعدنان عبد القادر**، صاحب كتاب 'جنى القلب الهايم في معرفة مواضيع السور'، يرى رأيًا قريبًا من رأي الأخت جميلة، أنَّ موضوع سورة الرعد: **طمأنة أهل المحبة بالوحي**، لكنه تمحوَر حول هذه الفكرة، ففسر السورة كلها على أساسها، فعزى آيات الخلق والمواضيع الأخرى إلى طمأنة المؤمنين، وأن الطمأنينة واليقين على درجات.
- وفي نظم الدرر للإمام **البقاعي**: **ربط ربطًا طويلًا بين الرعد والقرآن**.
- **د.هاني درغام** له حساب جيد على مواقع التواصل، وينشر كل فترة كتابًا جديدًا في الهدايات أو التفسير الموضوعي، وهو يرى في هذه السورة: **أنَّ دعوة الحق بمثابة الرعد الشديد الذي يهز عقول وقلوب المعاندين، كما أنَّها كالرعد، تحمل الخير الكثير**.
- ويرى **الشيخ محمد عبد الهادي المصري**: **أنَّ الحق قويٌ وراسخٌ، وإن لم يظهر أمام الأعين**.
- **د.عبد الله شحاتة** –وهو من علماء الأزهر– رحمه الله : له كتيب صغير في مواضيع السور، يرى في سورة الرعد: **أنَّها العقيدة، وقضاياها: التوحيد والبعث**.
- وفي الكتيب المشهور "**أول مرة أتدبر**": **يرى أنها تتكلم عن قوة الحق**.
- **د. فاضل السامرائي** في كتاب 'لمسات بيانية': **يرى أنها تتكلم عن قوة الحق وربَط ما بين الرعد وقوته وبين القرآن**.
- وفي كتاب **'معجزة أسماء السور القرآنية'**: **يرى التركيز على المعنى اللُغوي لاسم السورة، حيث ذكر أنَّ الرعد له معنى الإضطراب، وكيف أن الرعد يأتي للتثبيت في أوقات الاضطراب** –وسيأتي بيان هذا المعنى تفصيليًا في موضعه–.

هذا تقريبًا كل ما وجدته قد قيل في موضوع سورة الرعد، وسنحاول في آخر مجلس للسورة أن نراجع موضوعها –حتى لو لم يكن موضوعًا واحدًا–، وبماذا نخرج من السورة.

{الٓمٓرٰۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ}

انظر إلى بداية السورة {وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ}، فلا تنشغل لأنه: {وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ}

وبعد ذلك فجأة تبدأ آية بلفظ {ٱللَّهُ} -وقد سمعتُ مقطعًا للشيخ عبد الرشيد الصوفي يقرأ فيه آية تبدأ بلفظ الجلالة {ٱللَّهُ} ويكررها كثيرًا-، وبداية الآية بلفظ الجلالة ووقع لفظ الجلالة على الأذن له معنى وصدى آخر.

حيث جاء في بداية السورة: تلك آيات الكتاب، وبعد ذلك ذكرت أنّ معك الوحي الحق، لكن كثيرًا من الناس يرفضونه ولا يؤمنون به، فأنت تتوقع أن تأتي الآية التالية لترد على الذين لا يؤمنون، أو تناقشهم، لكنك تجدها تنقلك بشكل مفاجئ إلى: {ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَاوَاتِ}،ثم تطوف بك في السماوات والأرض، وبعد ذلك يصدر الحكم على من رفض الإيمان بالوحي في نهاية الصفحة: {أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم}، وهذه الآية لم تأتِ بعد {وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ}، لأن القرآن لا يخاطب العقل ويعطيك المعلومات فحسب، وهذا ما سنذكره إن شاء الله في طريقة القرآن في تقرير العقائد-.

وكتاب "دراسات قرآنية" أبدع في شرح هذه الفكرة -سواء في المقدمة التي قدمها لكتابه، أو في سورة الرعد-، وهي أن **القرآن يخاطب الإنسان، كإنسانٍ متكامل له عقل ومشاعر**.

{ٱلمر}

حروف مُقطعة، وفيها خلاف مشهور بين أهل العلم:

- منهم من قال هي للتحدي.
- ومنهم من قال هي للتنبيه.
- ومنهم من قال أن هذه الحروف هي التي تكوّن منها القرآن، فأروني إذًا أنفسكم، كمثل صانعٍ صنع شيئًا مبهرًا -سيارة أو شيئًا خشبيًا مثلًا- ثم تحدّى الناس قائلًا: إليكم هذه الأدوات التي صَنعتُ منها، فأروني أنفسكم، ولله المثل الأعلى، فهذه هي الحروف.

وهذا معنىً جيد؛ لكنه قد يكون معنىً عامًا، فهو لا يفسر سبب الاختلافات، أي أنك تجد في سورةٍ {ٱلر} وتجد هنا {ٱلمر}، وفي سورة أخرى {المص}، كما تجد {كٓهيعٓصٓ} وهي أطول الحروف المقطعة كبداية، إذا اعتبرنا أن {حمٓ۝عٓسٓقٓ} هي خمسة حروف، لكنها مفصولة، وقد يكون لهذه الحروف دلالات وأسرار، حيث أن منهم من اختار ذلك،

- ومن السلف من فسرها بأنَّها من أسماء الله،
- أو أنها قسَمٌ،

- أو أسماء سور-

وقد ذكرت هذا بالتفصيل في مقدمة سورة الأعراف-.

ومن اختار من السلف أنَّ لها معنىً ودلالة، قال:

- ا = أنا
- ل = الله
- م = أعلم
- ر = أرى

فهي تُثبت علم الله ومراقبته -سبحانه وتعالى-.

{تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ}

عندما تخرج من سورة يونُس وهود وأنت في حالة استضعافٍ قد تدفعك إلى الشك في عقيدتك ومبادئك نتيجة الضغط، فإنك تكون بحاجة إلى تثبيت -وقد تجاوزتُ يوسُف لأني ذكرت أنها جاءت تسلية-، وكما ذكرنا في مقدمة سورة يس أنَّ **الداعية يحتاج أحيانًا إلى تثبيت**، حيث يقول الله -سبحانه وتعالى- للنبي -صلى الله عليه وسلم- في أول السورة مؤكدًا: {إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِّينَ}[يس:٣]

ولا شكّ في أنَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- يعرف ذلك، لكنه يحتاج لسماعها.

فأنت عندما تقدم تضحياتٍ كبيرة، وتمر بابتلاءات كثيرة ويكثر عليك العتاب، ولوم اللائمين، وتفقد أعز الناس، وأعز ما تملك، تحتاج لمن يقول لك: أنت على الحق، استمر وأكمل الطريق.

ومع الضغط المستمر على المؤمنين كانت تعلو نبرة المشركين: أنتم لستم على الحق، ولا توجد معكم آية، ائتوا لنا بآية، ولو آية واحدة، وسنؤمن

{وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَة} [الرعد:٧]

وسنتحدث عند هذه الآية عن طلب الكفار للآية، والفرق بين الآية الحسية والآية المعنوية.

وطلبُ المشركين لآيةٍ حسية هو معنى محوري تكرر كثيرًا في القرآن المكي، وسنشرحه بالتفصيل إن شاء الله.

وتأتي السورة لتقول أنه ليس معك آية واحدة فحسب، ولا حتى سورة الرعد وحدها، بل القرآن كله آيات، وكل ما أُنزلَ إليك من ربك هو الحق، فمن كمال ربوبيته -سبحانه وتعالى- ألا يترك الناس بدون وحي {وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَّبِّكَ ٱلحَقُّ} [الرعد: ١].

وهذا اختيار من أقوال المفسرين؛ أن 'تلك' تعود على سورة الرعد -إذ ليس من الضروري في كل موطن أن أذكر الخلاف-، حيث أن 'تلك' فيها عدة أقوال:

- تعود على كتب المتقدمين أو ما تقدم من نزول القرآن.
- قال الزمخشري فيها أنها سورة الرعد، وتبعه كثير من المتأخرين.

الحق الأوحد الكامل

وكلمة الحق جاءت هنا معرفة ، ولم يقل:"حق"، وإعرابها خبر.

والأصل في الخبر وهو المسند، أن يأتي نكرة، مثل:الله أكبر!

بينما الأصل في المبتدأ أن يأتي معرفة، فأقول مثلًا: محمد جميل، أي أُخبر عن محمد أنه جميل، فعبرت عن المبتدأ بلفظ نكرة، وإذا أضفت (ال) التعريف أي: الجميل، فإن لي غرضًا آخر غير مجرد الإخبار.

فإذا ما غيّرت في الجملة الخبرية بأي شكل من الأشكال، بإضافة إنَّ للمبتدأ مثلًا، أو بإضافة لام توكيد، أو قَسَم، أو أسلوب قصر، فإن ذلك يُضيف غرضًا آخر غير الإخبار.

فإضافة (ال) التعريف لكلمة "حق" تعني الإخبار عن أنه ليس مجرد حق فحسب، بل هو الحق، وهو يعني: إما الانفراد أو الكمال، وقد اختار بعض المفسرين معنى الانفراد، وبعضهم اختار معنى الكمال، ونحن نجمع بين الاختيارين، وهذا من ثراء المعاني القرآنية، فيكون المعنى: **الحق الأوحد الكامل** ، فلا تبحث عن الحق في مكانٍ آخر، ولو وجدت بعض الحق في أماكن اخرى فهو ناقص.

إذًا فالسورة من البداية تطمئنك، وأعجبني كثيرًا التقاط معنى الاطمئنان في السورة {ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكرِ ٱللَّهِ تَطمَئِنُّ ٱلقُلُوبُ}، وعندما نصل إليها سنذكر في أي سياق جاءت، فالبعض يرى فيها أنك ستطمئن بمجرد أن تقول الأذكار، لكننا سنرى أن لها معانٍ أخرى إضافة إلى هذا المعنى.

{تِلكَ ءَايَٰتُ ٱلكِتَٰبِ وَٱلَّذِيٓ} انظر إلى الاطمئنان، فالذي معك هو الحق وليس حق، والفرق بينهما كالفرق بين "الله إله"، وبين "لا إله إلا الله"، حيث أن إضافة (ال) التعريف إلى الخبر أفادت الانفراد والكمال،أي: الحق الأوحد الكامل.

{وَلَٰكِنَّ} قد تستغرب من بُعد آلاف البشر عن الحق، فلا تتشكك، فكثير منهم لا يؤمنون {وَلَٰكِنَّ أَكثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤمِنُونَ}.

وأذكر ذات مرة، نقاشًا دار بيني وبين أحد الشباب، وقد كانت عنده شبهات إلحادية، في جلسة طويلة استمرت من الظهر إلى العشاء، وكان قد أتى بورقة مليئة بوجهيها بالشبهات الإلحادية؛ وكان حافظًا للقرآن –مما سهل الطريق–،ثم والعياذ بالله أوشك أن يكون على شفا الإلحاد، فتناقشنا طويلًا، وحدثته عن إعجاز القرآن فلم يقتنع، وبعد محاورات طويلة طلبت منه أن يقرأ القرآن، فقال: ماذا أقرأ؟ فقلت له أن يقرأ سورة الرعد، وقال لي أنه لا يفهم جيدًا، فرشّحت له كتاب "دراسات قرآنية"، وبعد فترة سألته إن كان قرأ شيئًا أو رجع إلى الصلاة ، فأجابني بالنفي، ثم بعد فترة أخرى كررت سؤالي له، فأجابني بنفس الرد، فعنّفته بشدة، لأنه أفقدني أعصابي، وانقطعتُ عنه مدة، وإذ به يهاتفني ويقول: جاءتني حالة من الضيق الشديد، وجلست أدعو وأسأل الله أن يريني آية تدل على وجوده –وقد كان يسكن في سكن طلبة–، فوجد المصحف، وكان غاضبًا فقال: ما هذا؟! هل هذه هي الآية ؟!

ثم فتح المصحف، فإذا به عند سورة الرعد، وقد كان ما يشغله هو أنَّ المسلمين متأخرون، والغرب متقدمون، فلا بد من آية حسية تستوجب كسبهم والنصرة عليهم، ففوجئ هذا الشاب بمعنى الآيات، فيقول وكأن الله –سبحانه وتعالى– يقول لي: أنَّ الآية التي معكم أيها المسلمون ليست من جنس الآيات الحسية، وهذه وجدتها في قوله: {وَلَو أَنَّ قُرءانًا سُيِّرَت بِهِ ٱلجِبَالُ}[الرعد:٣١]، وأضاف بأنَّ الآية التي ردت على مسألة بُعد كثير من الناس،هي أول آية، فلا تنشغل بانصراف الناس!

{وَلَٰكِنَّ أَكثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤمِنُونَ}

فبداية السورة فيها قوة، وهذا من أسلوب الخطاب القرآني –وسنتحدث عنه في درس الخطاب القرآني–، **والقرآن يتعامل مع القضايا على أنها قضايا يقينية، فيتجاوز مرحلة إثبات القضية إلى إقرارها**.

كأن يسألك أحدهم: هل الله موجود؟، فتقول له: لا إله إلا الله،

فأنت بذلك قد تجاوزت القضية وتعاملت معها على أنها قضية بدهية أصلًا، ثم بدأت تتحدث عن مصير من سيكفر بهذا الإله، وقد تشير إلى بعض الإشارات السريعة، ثم تتجاوزها ولا تقف كثيرًا عندها، وكذلك يفعل القرآن.

ففي أول آية كان الكلام عن القرآن والوحي {تِّلْكَ آيَاتُ الكِّتابِّ وَالذِّي أنزلَ إليْكَ مِّن ربكَ الحَقُّ وَلَٰكِّنَّ أَكْثَرَ الناسِّ لَا يؤمِّنونَ}، والمعنى أنَّ ما معكم من القرآن فيه آيات، وكل القرآن آيات؛ لكن كثيرًا من الناس لا يؤمنون، ثم فجأة ينتقل السياق للحديث عن الله!

لذلك قال بعض المفسرين أنّ سورة الرعد تتحدث عن إنكار الوحي، وقال بعضهم أنها تتحدث عن إنكار البعث، بينما رأى آخرون أنها تتحدث عن إنكار وجود الله.

وانتقال السياق من الحديث عن الوحي إلى الحديث عن مُنزِل الوحي نستفيد منه كمؤمنين، فهو يعيد إلينا الثقة في القرآن، عندما نعرف صفات مَن أنزله.

فعندما تجد كتابًا وتتكاسل عن قراءته، ثم تنظر في نهاية الكتاب، فتُفاجأ بأنَّ كاتبه قد نال العديد من الجوائز والمراتب العليا، أو قد اخترع شيئًا ما، فهذا يستثيرك ويحثّك على قراءة هذا الكتاب –خاصة بعدما عرفت ما مع الكاتب من أدوات– فلا بد أن يكون هذا الكتاب نتاج إبداع وثقافة كبيرة، ومن المؤكد أن الكلام الموجود فيه مهم، ولله المثل الأعلى.

{اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾}[الرعد:٢-٤]

تأتي هذه الآيات الثلاث المتتاليات بعد أن خاطبتك الآية الأولى وقالت لك أن هذه السورة مليئةٌ بالآيات، وكل القرآن آياتٌ، وحقٌ، لكن أكثر الناس لا يؤمنون.

ثم فجأة تأتيك {ٱللَّهُ} فتبدأ بالإنصات، وترى بأن الصورة التي تُرسَم تأخذ بالاقتراب منك.

فالصورة الأولى: كانت عن السماوات والشمس والقمر والعرش، وهذا في الآية الثانية.

وفي الآية التي تليها: تقترب منك وتنقلك من وسط المجرات كلها إلى الأرض

{وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرضَ} وتأتي لك بالأرض باتساعها، والجبال الرواسي، والأنهار، وكل الثمرات، ثم فجأة تقترب الصورة منك أكثر فأكثر، وتنقلك إلى مزرعة مليئة بالأصناف والطعوم المختلفة، ثم تأخذ

بيدك، وتجعلك تتذوق الثمار، فتتذوق المانجو والبرتقال والفراولة...إلخ، وتدرك الفرق بين كل ثمرة وأخرى وتُفاجأ بأنها أرض واحدة وتسقى من ماء واحد.

فالآيات هنا اقتربت شيئًا فشيئًا حتى وصلت إلى حاسة الذوق في لسانك، لذلك جاء في البداية: {لعَلكُم بلقَاءِ ربكُمْ توقنونَ}، ثم بعد ذلك: {لَآيَاتٍ لقَوْم يَتَفَكَّرونَ}، وبعد ذلك: {لقَوْم يَعْقِّلونَ}، فأنت ليس لديك عقل إذا كنت لا تشعر بالآيات.

والصورة تستمر في الاقتراب منك، لأنَّها تخاطبك أنت!، وهي قد بدأت بأشياء كبيرة، ثم بأصغر، ثم بأشياء بالغة الدقة، وهذا من إعجاز رسم الصورة القرآنية –وقد شرحناه سابقًا في مساق تدبر القرآن أثناء الحديث عن كتاب التصوير الفني–.

فبدأت الصورة من السماوات باتساعها إلى الأرض، ثم إلى المكان الذي أنت فيه، ثم إلى لسانك، ولم يقل نُفضّل بعضها على بعض في اللون أو في أي شيء تراه من بعيد، لا بل {في الْأُكُلّ}، أما اختلاف الألوان فجاء في سورة فاطر، لكن في سورة الرعد اختلاف الذوق أي حاسة التذوق.

{اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا }

- الله، هنا إعرابها: مبتدأ،
- والذي: خبر، وهذا قول بعض المفسرين،

أي أن الله –سبحانه وتعالى– يخبرنا عن نفسه أنَّه هو {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى}، وبعد أن أخبرنا عن نفسه –سبحانه وتعالى– بذلك، أخبرنا أيضًا بجملة مُستأنفة جديدة أنه: {يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ}،

- بينما رأى البعض أنَّ الخبر هو: يدبر الأمر، فالله: مبتدأ يخبر عن لفظ الجلالة أنَّه: يدبّر الأمر،
- أما 'الذي رفع' فهي: نعت أو وصف.

ولتوضيح الفرق أعود للمثال السابق –ولله المثل الأعلى– كأننا نقول أن كاتب هذا الكتاب هو الذي فعل كذا وكذا، فهي تختلف عن إخبارنا بأن فلانًا كتب الكتاب فقط، وعندنا في الآية: 'الله يدبّر الأمر'، لكن كأنه أراد بهذا السياق التذكير –وهذا سر من اختار في الإعراب أنَّ يدبر الأمر خبر–، فأضاف

معنى جديدًا لتعرفوا مَن أنزل هذه الآيات التي ستقرؤونها، وهو أن مُنزل هذا الكتاب الذي دبّر الأمر وفصّل الآيات، هو الذي بقدرته {رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى}، فإذا كان الكون الذي خلقه الله بهذا الإتقان والإعجاز والدقة، فما بالُكم بكتابه!

{يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ}

وهذا لمن اختار ذلك الإعراب، وأكثرُ مَن فصّل في هذا الإمام الطيبي في الحاشية على الكشاف –لمن أراد الرجوع إليه–.

{اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا }

اختلف المفسرون في الضمير'ها' في 'ترونها' هل هو عائد على السماوات أم العَمَد؟

فلو قلنا أن 'ها' تعود على 'عمد'،فيكون المعنى رفع السماوات بغير عَمَد ترون الأعمدة ؛ أي أن هناك أعمدة غير مرئية، فسيكون إعراب جملة (ترونها): وصفًا للعَمَد، وقد قال بعض العلماء:بأن هناك أعمدة رُفعَت عليها السماء – قد تظهر للعلم وقد لا تظهر–، ولكننا لا نراها.

بينما يرى بعض المعاصرين الذين يحاولون أن يأخذوا من العلوم الحديثة ويسقطونها على الآيات أن من هذه الأعمدة الجاذبية الأرضية، مثل الرشيد الموصلي –وإن كنت أختلف معه في هذه النقطة–.

هذا عند من رأى أن (ترونها) وصف للأعمدة، أما

البعض الآخر قال بأن (ترونها) حالٌ من السماوات أو جملةٌ مستأنفة، بمعنى:ها أنتم ترون السماوات، فهل ترون من عَمَد؟!

فأنتم ترون السماوات مرفوعة بدون أعمدة، لأن الله قادر على ذلك، على غير عادة الناس الذين إن أرادوا أن يرفعوا شيئًا؛ رفعوه بأعمدة، لكن الله لا يحتاج إلى أعمدة

فهناك دائمًا فرقٌ بين طريقة البشر في فعل شيء ما وبين فعل الله، وهذا المعنى أبدع فيه الشيخ حبنكة الميداني في مقدمة سورة فاطر، فقد ذكر معنى الفطر وأن طريقة بناء الإنسان لمبنى تختلف عن طريقة خلق الله تمامًا، ففعل الله لا يستطيعه بشر.

{ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ}

أي علا وارتفع –سبحانه وتعالى–، واستوى استواءً حقيقيًا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، لا نعرف كيفيته –كتعبير كثير من السلف–، فلن نُأوّل ولن نفوض الصفة، بل نقول كما قال ربنا –سبحانه وتعالى–: {استوى على العرش} ثم نقول كما قال –سبحانه وتعالى–: {لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[الشورى:١١] لئلا ندخل في حوارات وقضايا، بل نثبتها كما هي ونقول {ليس كمثله شيء}.

{ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ}

إذًا الموضوع ليس عبارة عن معادلات فيزيائية هي التي تُسيّر الشمس،فمن أين جاءت هذه المعادلات الفيزيائية، فليست هناك قوانين قد جعلت الشمس تجري بهذه الطريقة وبهذا المسار تحديدًا، والقمر يجري بهذه الطريقة، وبتوقيت مُحدَّد

{لِأَجَلٍ مُّسَمًّى}، أي

- إما في منازل مُحدَّدة تتغير كل يوم،
- أو لأجلٍ مُسمَّى لوقت يوم القيامة، وهذا الذي عليه معظم المفسرين،

ثم تُكوَّر الشمس والقمر بعد أن يتوقف جَريهما، فالأمر لا يسير عبثًا، وكل شيءٍ تراه بضبطٍ وحسبانٍ، بتقديرٍ من العزيز الحكيم العليم –سبحانه وتعالى–، وبأجل، وله نهاية.

إذًا الموضوع ليس صدفة كما قال الدحيح في "محاسن الصُدَف"، وليس عدة أكوانٍ خَرِبة وجاء من بينها هذا الكون مضبوطًا صدفة، **فهذا الكون لم يُضبط على سبيل المصادفة، بل بتقدير العزيز العليم**.

وقال الله بعدها: {يُدَبِّرُ ٱلأَمرَ}

ومن اختار أنَّ هذه الآية تتحدث عن قدرة الله في الإحكام والإتقان، قال أنَّ (الذي) هنا خبر،أي أنَّ الله يخبر عن نفسه أنَّه هو الذي رفع السماوات بغير عَمَد، فقال بعدها أنه سبحانه فعل ذلك ليُريك كيف يدبر الأمر، ولكي ترى تفاصيل الآيات أمامك، فكل شيء مُفصَّل ومُوَّضح.

فالله جلَّ وعلا لا يُكلّمك عن شئ لا تراه، بل أنت ترى الشمس والقمر وتتابع كيف أنهما بتقديرٍ، وتعلم أن الشمس إذا تحركت –سواء اقتربت أو ابتعدت–، فسيخرب الكون، فهو لا يُكلّمك عن كواكبَ ومجراتٍ لا تراها أمام عينك، بل يكلمك عن أشياءٍ تحُسّها، **وقد قيل أنه من إعجاز هذه الآية خلاف التي بعدها أن الله جعل الليل والنهار مع آيات الأرض، وجعل الشمس والقمر مع آيات السماء، فالليل والنهار عوارض تحدث للأرض، فالشمس لا تنطفئ ليلًا وتضيء نهارًا، وما يجعلنا نشعر بها نهارًا هو حركة الأرض.**

{يدَبرُ الْأَمْرَ}

وجاءت بصيغة المضارع بمعنى أنَّ الكون محتاج إلى الله في كل لحظة، على عكس ما كان يقوله بعض الفلاسفة: أنَّ الكون يشبه الساعة التي صُنعت وركِّبت ثم أخذت تدور وحدها، وقال بعضهم أنَّ الساعة صُنعت عشوائيًا وبمحض الصدفة ضُبطت فدارت وحدها –هذا في الكتاب الأحمق لدوكينز عندما يتحدث عن صانع الساعات الأعمى–.

لذلك فإن كثيرًا من الملاحدة عندهم إشكالية في لحظة البداية، فهم يريدون معجزة تكون هي بداية تشغيل الكون، وبعد ذلك سيسير الكون وحده، ولا يحتاج لله، لا! بل الله –سبحانه وتعالى– {كُلَّ يَومٍ هُوَ فِي شَأنٍ}[الرحمن:٢٩]، هو رب العالمين {يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ}[فاطر:٤١]

فالكون في كل لحظة يحتاج إلى الله، وأنت كذلك في كل لحظة "لا تكلني إلى نفسي طرفة عين"، لذلك جاءت بصيغة المضارع.

{يُدَبِّرُ ٱلأَمرَ يُفَصِّلُ ٱلآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُم تُوقِنُونَ}،

وكنت تتوقع أن يقول: "لعلكم بوجود ربكم"،ولكن الآية قد تعدت إثبات وجود الله، وهي تبيّن أنَّ هناك منهجًا سينزل وستحاسب عليه، ونحن نخاطبك كي تُوقن بالبعث.

{اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾}

أما عن العلاقة بين إحكام السماوات بهذه الطريقة التي جاءت في بداية الآية،وبين ختام الآية الذي يتكلم عن اليقين بلقاء الله وهو البعث فسنعرفها في الحلقة القادمة، حيث نكتفي بهذا القدر.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

وجزاكم الله خيرًا.